

من هنا وهناك

وثنية إخوان الصفاء . . . أيضاً

واليوم أعود مرة أخرى إلى ما نشره الأديب جبور عبد النور عن معالم الوثنية في رسائل إخوان الصفاء (١) تعقيباً على ما نشرته في الرد عليه (٢) ويؤسفني أن أقول إن الأديب أبي أن يفهم ما كتبتة كما أبي أن يفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء . بل قل إن هذا الكاتب من طبيعته - كما ظهر في مقالته - أن يعتمد إلى تشويه النصوص التي أمامه ، فعل ذلك عندما أراد أن يستشهد ببعض نصوص إخوان الصفاء ، وفعل ذلك في رده على . وعجبي أن يذهب هذا الكاتب إلى أن الدراسات العلمية لا تنكر اقتطاع النص والاستشهاد بجزء منه وطرح بقية . فمتى كانت الدراسات العلمية غير أمينة في نقل النصوص ؟ وأي منهج من مناهج البحث العلمي ، الذي يراد به الحق قبل كل شيء ، يبيح مثل هذا الخطأ العلمي الخطير ؟ فالبحث

والعلمي ومناهجه أحرص على الأمانة العلمية من أن تجزئ النص حسب أهوائنا ، فنأخذ من النص الواحد ما نشاء ونطرح ما لم نشاء ، والأمانة العلمية تقتضي أن نأتي بالنص كاملاً غير محرف ولا مشوه ، ذلك إذا أردنا أن نحكم حكماً صحيحاً أو قريباً من الصحيح ، دون أن يفسد حكمنا هوى أو نزعة من النزعات حتى لا نكون متعسفين في أحكامنا . فإذا كان اقتطاع النص مستساغاً في رأي الكاتب وأنه ليس بمنكر لديه ، فإني أرى لقرائه وتلاميذه أن يلتمسوا علمهم عند رجل يشوه النصوص ، ويزعم أن البحث العلمي لا ينكره ، ولست أدري من أين جاء الكاتب « بأنني أتجنى على معالم الوثنية عندما ألح أن نحكم على الاخوان من ظاهر كلامهم » . فلو كان الكاتب دقيقاً في قراءة ما نشره ، حريصاً على فهم ما ورد في مقالتي الأولى

(١) مجلة « الكاتب المصري » عدد ٢١ (يونيه ١٩٤٧) ص ١١٦ .

(٢) مجلة « الكاتب المصري » عدد ١٩ (أبريل ١٩٤٧) ص ٥٦٥ .

دون أن يعمد إلى تشويبه أو تحريفه ؛ ولكن الكاتب أبى إلا أن يكون هرمس لعلم أن الذى نشر بالحرف الواحد هو « أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرموز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التأويل الباطنى الاسماعيلى ، فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيلية وإخوان الصفاء ، ومعرفة أسرار الاسماعيلية تؤدىنا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل «إخوان الصفاء» . هذا ما نشرلى فى مجلة «الكاتب المصرى» ، وشتان بين ما فهمه الأديب جبور وبين ما تشر . ثم إنى أوردت فى مقالى بعض تأويلات اسماعيلية أشرح بها بعض ما خفى من نصوص إخوان الصفاء ، ولكن الكاتب أبى دائماً إلا أن ينحرف عن الصواب ، فى سبيل فكرة اختمرت لديه ، وحاول أن يثبتها بشتى الطرق ولو خالف فى ذلك مناهج البحث العلمى . فالإخوان ذكروا أنهم علويون ، وبأبى الكاتب إلا أن يجعلهم يتخذون ميلهم العلوى تقيية وإخفاء للواقع ! ويصرح الإخوان أن هرمس هو النبى إدريس شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من كتاب المسلمين .

(١) المجالس المستنصرية . ديوان المؤيد فى الدين داعى الادة . راحة العقل . السيرة المؤيدية . مع ملاحظة أن الاسماعيلية تشعبت إلى عدة فرق وكلامنا الآن ينصب على الاسماعيلية الذين حكوا عدة بقاع إسلامية باسم « الدولة الفاطمية » وهى الشعبة التى وصلتنا كتبهم وعقائدهم ، أما غيرها من الشعب فلا نكاد نعرف من أمرها شيئاً .

بين الباطنية وبين غيرها من الفرق . والقاضى العادل إذا أراد أن يحكم بين خصمين فعليه أن يستمع إلى أقوالهما جميعاً ، أما أن يأخذ برأى جانب واحد فقط فلا قضاء ولا عدل ؛ وهذا ما فعله صاحبنا الأديب جبور . عندما استشهد برأى البغدادي الذى تظهر فى كتاباته روح العصبية الموقوتة عند المحدثين .

ولا يتوهم الكاتب كما توهم من قبل أنى أدافع عن الباطنية أو أنى أفول بأنهم لم يخرجوا عن التقاليد الحنفية . فالذى استطعت أن أثبتته بعد دوام قراءة ما كتبه دعاة الاسماعيليه أنهم فى عبادتهم العملية التى أطلقوا عليها اسم العبادة الظاهرة ، لا يكادون يختلفون عن العبادة العملية عند كافة المسلمين فهم يقومون بجميع فرائض الدين من طهارة وصلاة وزكاة الخ ولكن تأويلهم الباطن هو الذى يخالف ما عليه إجماع المسلمين . وقد شرحنا شيئاً من ذلك فى كتبنا (١) ولو أراد الكاتب أن ندله على الوثنية فى آرائهم وفى رسائل إخوان الصفاء لاستنفذ ذلك عدة مقالات ، ولخرجنا عن موضوع المناظرة التى بينه وبينى ، التى أريد

بها أن أبين أن نصوصه التى يستشهد بها على وثنية الاخوان لا تثبت وثنية الاخوان بأى حال من الأحوال ، فليبحث عن نصوص أخرى لعله يهتدى ويوفق .

أما قول الكاتب إننا نجد فى تضاعيف الرسالة ما نشاء من المذاهب الدينية والفكرية . . . الخ ، فهذا ليس بجديد ، وقد سبق أن ذكر أستاذنا الدكتور طه حسين بك ذلك كله فى مقدمته لرسائل إخوان الصفاء ، وذكر ذلك كل المستشرقين الذين بحثوا رسائل الاخوان . وأحب أن أفول الآن إن مذهب الاسماعيليه كله — لا فى رسائل إخوان الصفاء فقط — أخذ عقائده عن المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة ، وعن الأفلاطونية الحديثة ، وعن الفارسية القديمة ، والخرنافية الخمسة ، وبالاختصار عن كل المذاهب التى عرفها العالم قبل الاسلام وبعده ، حتى مصرهم ، وأن الاسماعيليه اتفقوا مع المعتزلة فى مسائل وهاجموا المعتزلة فى مسائل أخرى ، واتفقوا مع الشيعة الاثنى عشرية فى أمور وخالفوهم فى أمور ، وأخذوا عن غلاة الشيعة أشياء

(١) راجع تعليق واحد فى الصفحة السابقة .

والخليفة هو الذى استولى على الملك دون حق ومنع صاحب الحق حقه . فاذا كان الامام هو صاحب السلطة الدينية فهو إمام وخليفة . فمثلا نرى فى كتب الدعاة فى العصر الفاطمى أن صاحب الأمر فى مصر كان يسمى بالامام وبالخليفة معاً ، ولكن بعد أن انقسمت الدعوة بعد المستنصر الفاطمى سنة ٤٧٨ هـ ، لم يعترف النزاريون بامامة المستعلى بن المستنصر فسموه بالخليفة . وبعد أن انتقل مركز الدعوة إلى الين بعد وفاة الأمر بن المستعلى وعرفت هناك باسم الدعوة الطيبية ، كانوا ينظرون إلى الحافظ والظافر والفائز والعاضد — آخر خلفاء الدولة لفاطمية — نظرتهم إلى الخليفة الذى اغتصب ملك الأئمة الشرعيين . وعلى ذلك يستطيع الأديب جبور أن يغير من رأيه فى تأويل الخليفة عند إخوان الصفاء وعند الاسماعيليين ؛ فان الخلفاء عندهم هم الملوك من أصحاب الدنيا ، واذن لم يخالف إخوان الصفاء ما عليه مؤرخو المسلمين وما جاء فى القرآن الكريم من التفريق بين صاحب الدين وصاحب الدنيا . أما أن الاخوان كانوا يأخذون بنظام الفيثاغوريين لتحصيص مبادئهم ، فواضح من رسائلهم أنهم متأثرون بالفيثاغوريين فى مبادئهم

وهاجموا الغلاة فى أشياء . وهكذا كان الاسماعيلية — ومنهم إخوان الصفاء — سبباً فى أن تدخل بعض المذاهب القديمة فى الاسلام ، وقد ذكرنا ذلك كله فى بحث لنا نشر بمجلة « الراوى الجديد » عدد أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، وفى المقدمة التى كتبناها فى نشر « ديوان المؤيد » داعى الدعاة وأتينا فى البحثين بنصوص صحيحة غير مشوهة ولا محرفة ولا ناقصة تؤيد القضية التى سقناها .

ونعود بعد ذلك إلى ما كتبه عن فصل الدين عن الدنيا ، فقد أرشد الله الأديب جبور إلى الصواب فأقر بما حاول ألا يقر به فى بحثه الأول . فالنتائج التى انتهى إليها فى مقاله بمجلة « الكاتب المصرى » تختلف عما أراده وما نشره فى مجلة « الأديب » البيروتية ، وهو لم يصل إلى هذه النتائج إلا بعد أن أتى بنصوص الاخوان كاملة بدلا من هذه النصوص المسوخة التى أتى بها من قبل ، فأهنى الأديب الكاتب لرجوعه إلى الحق . ولكن هناك مسألة أحب أن ألفت إليها نظر الكاتب وهى نظرية الاسماعيليين ومنهم الاخوان فى الخليفة . فالاسماعيليين يفرقون بين الامام والخليفة؛ فالامام هو صاحب الحق الشرعى المنصوص عليه من نسل النبى الكريم ،

الفلسفية ، ولا سيما في فلسفة الأعداد .
فلا غرابة أن يتبع الاخسوان
الفيثاغوريين ونظمهم للوصول إلى
غايتهم وهي إخضاع العالم الاسلامي
لعقائدهم وسلطان إمامهم العلوي
الاسماعيلي .

أما ما ذهب إليه الأديب من « أن
القول بأن التنجيم من الأمور التي ألفها
الناس في حضارة العرب كما أنها عرفت
في الحضارات القديمة ولا يزال بعض
الناس يؤمنون بها فهو قول فاسد » فهذا

السيف أصدق إنباء عن الكتب
في حده الحد بين الحد واللعب

ولعله قرأ تلك القصص العديدة
عن أبي معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢
وكيف كان يتكسب بالتنجيم ، إلى غير
ذلك من الأدلة العديدة التي لا حصر
لها على أن علم التنجيم كان يسير مع
علم الفلك جنباً إلى جنب في تاريخ
الحياة عند المسلمين . وكنت أحب
أن يثم الأديب جبور نص ما اقتبسه
عن الأستاذ نالينو ولا يقطع منه حتى
تم الفائدة . فقد ذكر أستاذنا نالينو
ما ترجمته : « وقد أجمع المتكلمون
والفقهاء والفلاسفة على إنكار التنجيم

يضطرنى إلى أن أسوق للأديب ما
قاله العلامة جورج زيدان في كتابه
« تاريخ التمدن الاسلامي » : « وأول من
عنى بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية
أبو جعفر المنصور ، فترجموا له السندهند
واقتردى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن
كبير عندهم حتى ، في إبان العصر
العباسي ، وكان النجمون فئة من
موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتاب
والحساب ولهم الرواتب والأرزاق
وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير
من أحوالهم الادارية والسياسية . فاذا
خطر لهم عمل وخافوا عاقبته امتشاوروا
المنجمين فينظرون في حال الفلك
واقترانات الكواكب ثم يشيرون

الوثنية الحرائية ، ولا أجد الآن متسعاً من الوقت للتدليل على ما ذهبت إليه ولا سيما أنى أعمل الآن في نشر كتاب « راحة العقل » ففي هذا الكتاب بالذات ما يشفى غلة الأديب جبور ويطلع على بعض أسرار العبادة الفلسفية، وسيرى أن هذه العبادة ليست بوثنية حرائية! بل هي صبح الآراء الفلسفية القديمة والمذاهب الدينية المختلفة بالصبغة الاسلامية . فلننتظر صدور هذا الكتاب الذى سيمسك الشام عن كثير من أسرار الاخوان . وأختم كلمتى بأن أسأل الأديب جبور هل ثبت لديه أن مؤلفى الرسائل هم هؤلاء الذين وردت أسماؤهم فى كتاب المقاسبات وفى أخبار الحكماء للقبطى حتى يذهب إلى أن الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل رموا بالخروج عن المؤلف فالاخوان إذن وثنيون ؟ وما علاقة الحكيم المجرىطى برسائل إخوان الصفاء ؟ فاذا استطاع الأديب أن يأتى لنا بشئ جديد عنهم فيكون قد فتح لنا فتحاً جديداً فى هذا اللون من الدرس بعد أن أعيانا البحث فى ذلك .

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب

ولم يشذ عنهم إلا نفر قليل كالكتندى وإخوان الصفاء وفخر الدين الرازى . ولم يكن لهذا الانكار من أثر فى الواقع ؛ ذلك أن التنجيم كان له شأن فى قصو الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك إلى القرن الماضى فكان فى دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم ، بيد أنه لا يزال موجوداً فى البلاد التى لم تصب من الحضارة الغربية إلا قليلاً . (١) فكيف نتعسف فى أحكامنا ونرمى إخوان الصفاء وحدهم بالوثنية لأنهم ذهبوا هذا المذهب ؟ وكيف يكون قولنا فاسداً لأننا قلنا إن التنجيم كان معروفاً سائداً فى البلاد الاسلامية ؟ هذا ما لم أعرف تعليقه . وقد قلت فى مقالى السابق إن التأويل الباطنى للعبادة الفلسفية هو العبادة الباطنية التى دان بها الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء . ولكن الأديب جبور عاد واتخذ ظاهر كلام الاخوان وفسره تفسيراً ظاهرياً أيضاً دون أن يفتن إلى أسرارهم ويدرك تأويل كلامهم ، فذهب الى ان العبادة الفلسفية هي العبادة

(١) راجع الترجمة العربية لدارة المعارف الاسلامية مادة التنجيم .